مفهوم المجتمع المدني عند كانط و هيغل

أ.م.د.احسان عبدالهادي النائب(*)

الملخص

كان الدافع الأكبر للفلاسفة الالمان الى كتابة فلسفتهم السياسية عن المجتمع المدني، هو من اجل اعادة تنظيم الدولة والمجتمع على اساس عقلي، بحيث يمكن التوفيق بين النظم الإجتماعية والسياسية وبين حرية الفرد ومصالحه، وبناء مجتمع اكثر مساواة وعدالة. لقد اراد كانط تأسيس المجتمع المدني على نظام من الغايات الأخلاقية وعلى احساس باطني بالواجب الأخلاقي يوحد البشر معا، نوفق فيه بين اهدافنا الجزئية والمتطلبات الأخلاقية الكلية ونشكل منها مجالاً عاماً للحياة المدنية، ويتداخل مع المجتمع السياسي وأنه ليس سوى أسم آخر للدولة . بينما نظر هيغل الى المجتمع المدني على انه يتميز عن الدولة، حيث يقود تقسيم العمل الإجتماعي الى تماسك أفراد المجتمع ويفسح المجال لتوظيف الأفراد ضمن الطبقات، وموضوعه الرئيسي هو نسق الحاجات.

المقدمة

إن ظهور مفهوم المجتمع المدني كان نتاجاً طبيعياً لتطور المجتمع البشري على مر العصور، وبانتقال هذه المجتمعات من مرحلة الى غيرها من مراحل التطور الإقتصادي والإجتماعي والثقافي والسياسي، تطور خلالها مفهوم المجتمع المدني . وكان الدافع الأكبر للفلاسفة الالمان الى كتابة فلسفتهم السياسية في العصر الحديث، هو من اجل اعادة تنظيم الدولة والمجتمع على اساس عقلي، بحيث يمكن التوفيق بين النظم الإجتماعية والسياسية وبين حرية الفرد ومصالحه. وتكمن أهمية الموضوع في أنه كان ومازال التطلع الى مجتمع اكثر مساواة وعدالة يمثل الحلم الذي كانت تطمح اليه

(*)قسم العلوم السياسية /كلية القانون و السياسة / جامعة السليمانية.

المجتمعات البشرية على مر التاريخ . والمجتمع المدني يمثل هذا الحلم ذاته .وتبين إشكالية البحث أن إستخدامات مفهوم المجتمع المدني جاءت بفعل متطلبات وإملاءات الحقب التاريخية التي مر بها، لاسيما عند تحلل النمط التقليدي للمجتمع الإقطاعي، وتزامن معه الشعور بأن السياسة صناعة ونشاط عقلي تابع لجهد وعمل الإنسان والمجتمع، والذي يعكس الحاجة المتنامية الى خلق مفهوم جديد يعبر عن حقيقة الإنسان وطبيعة اجتماعه المدني. ومن اجل الإجابة على هذه الإشكالية جاءت فرضية البحث لتبين محاولة (كانط) في تأسيس المجتمع المدني على نظام من الغايات الأخلاقية ويشكل منها مجالاً عاماً للحياة المدنية، ويتداخل مع المجتمع السياسي وأنه ليس سوى أسم آخر للدولة. بينما نظر (هيغل) الى المجتمع المدني يتميز عن الدولة، حيث يقود تقسيم العمل الإجتماعي الى تماسك أفراد المجتمع ويفسح المجال لتوظيف الأفراد ضمن الطبقات، وموضوعه الرئيسي هو نسق الحاجات. وقد تطلب الخوض في هذه الإشكالية الخوض في عدة منهجيات منها: المنهج الوصفي والمنهج التحليلي.

ومن أجل تسليط الضوء على موضوع البحث سيجري توزيعه على مطلب تمهيدي ومبحثين، جاء المطلب التمهيدي لبيان ماهية المجتمع المدني وتطور إستخدام مفهومه، وكرسنا المبحث الأول لبيان التأصيل الفلسفي للمجتمع المدني عند كل من كانط وهيغل، بينما تطرقنا في المبحث الثاني الى مجتمع الغايات ومجتمع الحاجات، وسندرج في خاتمته أبرز ما توصلنا اليه من إستنتاجات .

المطلب التمهيدي : ماهية المجتمع المدني

شكل مفهوم المجتمع المدني مادة خصبة للدراسات الفلسفية و الإجتماعية والسياسية . فلقد حظي بإهتمام كبير و خصصت له تعريفات عديدة ومتنوعة بتنوع الوظائف والمكانة التي أرادها له المفكرون ضمن البناء الإجتماعي والإقتصادي

والسياسي والثقافي للمجتمعات البشرية في علاقاتها الإتصالية أو الإنفصالية مع الأطر المؤسساتية لجهاز الدولة أو السلطة[١].

إن للمجتمع المدني تعاريف كثيرة، ومنها، ما قدمه مركز المجتمع المدني في مدرسة لندن الإقتصادية: "يشير المجتمع المدني الى مجال الفعل الجمعي الطوعي الذي يقوم حول مصالح وغايات وقيم مشتركة، وتتميز أشكاله المؤسساتية نظرياً عن الأشكال المؤسساتية لكل من الدولة والعائلة والسوق، مع أن الحدود عملياً، بين المجتمع المدني والدولة والعائلة والسوق غالباً ما تكون معقدة و مشوشة و محل نقاش . و من الشائع ان يضم المجتمع المدني منوعاً من الفضائات والفاعلين والأشكال المؤسساتية تختلف في درجة رسميتها واستقلالها وسلطتها، وغالباً ما تكون المجتمعات المدنية مؤلفة من منظمات مثل الجمعيات الخيرية المسجلة، والمنظمات غير حكومية والجماعات الخاصة ومنظمات النساء والمنظمات القائمة على أساس العقيدة والروابط المهنية و النقابات وجماعات العون الذاتي و الحركات الإجتماعية وجمعيات الأعمال والإتحادات و جماعات الدفاع" [٢].

ويقصد بالمجتمع المدني ايضاً : " المؤسسات السياسية والإجتماعية والإقتصادية والثقافية التي تعمل في ميادينها المختلفة في استقلال نسبي عن سلطة الدولة لتحقيق اغراض متعددة، منها اغراض سياسية كالمشاركة في صنع القرار على المستوى القومي، ومثال ذلك الأحزاب السياسية، ومنها اغراض نقابية كالدفاع عن المصالح الإقتصادية لأعضاء النقابة، ومنها اغراض مهنية كما هو الحال في النقابات للارتقاء بمستوى المهنية والدفاع عن مصالح اعضائها، ومنها اغراض ثقافية كما في اتحادات الكتاب والمثقفين والجمعيات الثقافية التي تهدف الى نشر الوعي الثقافي وفقاً لإتجاهات

---

(١) عنصر العياشي ، ماهو المجتمع المدني ؟ الجزائر نموذجاً ، المجلة الجزائرية في الأنثروبولوجيا و العلوم الاجتماعية ، ع(١٣) نيسان ٢٠٠١، ص٦٤.

(٢) نقلاً عن : زبير رسول أحمد ، المجتمع المدني والدولة اشكالية العلاقة (العراق كحالة للدراسة) ، مكتب الفكر والوعي للاتحاد الوطني الكوردستاني ، السليمانية، ٢٠١٠،ص٣٣.

اعضاء كل جمعية، ومنها اغراض اجتماعية للإسهام في العمل الإجتماعي لتحقيق التنمية"( )[٣].

ان مصطلح المجتمع المدني له عدة استخدامات ، من بينها انه يشير الى نظام ملتزم بتأمين حكم القانون، في صالح الخير العام . وفي المجتمع المعاصر يشير الخير العام الى تنوع من المصطلحات الممكنة ، مثل توفير الحقوق الأساسية ، والسلامة العامة ، والتعليم و نظم الاتصال والطرق ، الى غير ذلك . غير ان مصطلح المجتمع المدني له استخدام ثانٍ ايضاً ، حيث يشير الى مجال يوجد بين الحكومة الوطنية والفرد ، وفي هذا المجال هناك تنوع من الفئات المختلفة والجمعيات كل منها مكرس للمحافظة على قيم معينة وتحقيق غايات خاصة ( )[٤].

من الجوانب المهمة في المجتمع المدني انه كمجال منفصل يعمل (كَمَصَد) ضد سلطة الحكومة المركزية ، و بدوره هذا يشجع على وجود مناخ يتيح لجماعات مختلفة الاستمرار في مساراتها الخاصة دون خوف من تدخلات الحكومة . ومن ناحية اخرى ، يشجع المجتمع المدني الناس على تأييد معايير عامة تعد ضرورية للحفاظ على حياة لائقة ومدنية . وبتدعيمهم لهذه المعايير، يبدي الأفراد الإحترام المتبادل للفضيلة المدنية، وبالتالي يحافظون على الإلتزام بالصالح العام ( )[٥].

ان عبارة المجتمع المدني تنتمي الى أقدم المفردات في قاموس الفلسفة السياسية . فهي في الأصل عبارة مطابقة لترجمة عبارة (ارسطو) "الجماعة السياسية". فقد دلت هذه العبارة على شكل الوجود الإنساني الذي يرجح ويفضل عندما يعيش الناس في ظل روابط سياسية أو مدنية ( )[٦].

---

(٣) ورد هذا التعريف وفقاً للندوة التي نظمها مركز الدراسات الوحدة العربية .نقلاً عن المصدر نفسه، ص٣٤.

(٤) ستيفن ديلو و تيموني ديل ، التفكير السياسي والنظرية السياسية و المجتمع المدني ، ترجمة ربيع وهبة ، المركز القومي للترجمة ، ط٢، القاهرة ، ٢٠١٠، ص٤٩.

(٥) كما ترجع اهمية المجتمع المدني الى أن في ظله ، يمكن للأفراد أن يطوروا طاقتهم الأخلاقية ووعيهم ، مما يساعد على حماية الحرية الاساسية التي يقدرها الناس في المجتمع المعاصر . ينظر: المصدر نفسه ، ص ٥٠-٧٠.

(٦) يصدق الشيء نفسه مع النظريات التعاقدية الحديثة التي يتقابل فيها " المجتمع المدني " مع " الحالة الطبيعة" عند (هوبز) ، ويتداخل مع المجتمع السياسي عند (لوك) ،ا و عند (كانط) لا يو يا ن المجتمع المدني ، ليس بو ى اسم آخر لا ولة . فالتمايزا و التقابل لا يي و لنا ، منذ(هيغل) و (ماركس) واضحاً و بديهياً بين المجتمع المدني و لا ولة. ينظر : علي بنمخلوف و محمد جنجار ، مفردات الفلسفةلا وربية –الفلسفة السياسية ، المركز الثقافي العربي، بو وت ،٢٠١٢ ،ص ٢٥ ٢.

لابد الى الإشارة الى وجود اكثر من استخدام للمفهوم نشأ بفعل متطلبات و املاءات الحقب التأريخية التي مر بها . بداية ينبغي الإشارة الى مسألة عدم وجود تمايز بين مفهومي الدولة و المجتمع المدني في القرون الوسطى مروراً بالفترة الحديثة حتى حدود القرن التاسع عشر ، حيث ظهر نوع من التمايز الواضح في كتابات (هيغل) ، فالدولة كانت تقوم على نوع من التوحد والانصهار بين مفهومي الدولة السياسية القديمة و المجتمع المدني الذين ما كانا قد توحدا بعد. فالاستخدام الأول ، والذي جعل منه مناقضا لمفهوم الطبيعة والمجتمع الطبيعي ، نشأ في إطار تحلل النمط التقليدي للمجتمع الاقطاعي وتزامن معها الشعور ، بأن السياسة صناعة ، أي نشاط عقلي تابع لجهد و عمل الانسان والمجتمع . ويبدوا ان هذا التوجه هو الذي افرز و بلور الفلسفة السياسية الحديثة وهو يعكس في الوقت ذاته الحاجة المتنامية الى خلق مفهوم جديد يعبر عن حقيقة الانسان و طبيعة اجتماعه المدني . وبذلك يتم (اعادة بناء السياسة على اسس غير دينية و غير ارستقراطية، اي لا ترتبط بتكليف إلهي ولا بإرث عائلي، ولكن ترتبط بالمجتمع نفسه، تنبع منه وتصب فيه) . ومن هنا تم الانتقال الى السلطة السياسية التي تعمل بتفويض من الشعب و إرادته الجماعية ( )[٧].

أما الاستخدام الثاني لمفهوم المجتمع المدني جاء في القرن التاسع عشر بشكل خاص وكانت البورجوازية قد حققت ثورتها على النظام الاقطاعي القديم و نقلت السياسة بصورة فعلية الى الميدان الإجتماعي( )[٨]. وقد شهدت هذه المرحلة منْ تأريخ مفهوم المجتمع المدني ظهور قيم جديدة مثل (المصلحة، و المنفعة، و الصالح العام، و الرابطة الاجتماعية). وكان تعبير الصالح العام والمصلحة العامة يمثل رفضاً لبنية

---

(٧) ان المجتمع المدني في هذا السياق يعني " الرابطة الإجتماعية العادية كأساس للإجتماع مقابل الرابطة الدينية أو الأرستقراطية التي ترتبط بالعرف والتقاليد ". أي السياسة الحديثة هي السياسة المدنية ومن هذه السياسة سوف تتطور مفاهيم مدنية أخرى مثل المواطنية ، الديمقراطية ، حقوق الإنسان. ينظر : علي عبود المحمداوي و حيدر ناظم محمد ، مقاربات في الديمقراطية و المجتمع المدني ، دار صفحات ، دمشق، ٢٠١١،ص ٧٠.

(٨)تمثل الثورة السياسية البورجوازية في حقيقتها التأريخية ثورة المجتمع المدني ، حيث حطمت هذه الثورة جميع المراتب والامتيازات التي كانت سائدة في المجتمع الاقطاعي ، وافسحت المجال لعملية التحرر السياسي للمجتمع المدني . ينظر: توفيق المديني، المجتمع المدني و الدولة السياسية في الوطن العربي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق، ١٩٩٧،ص٦٧.

المجتمع في ((المجتمع القديم)) ، وأما تعبير الرابطة الإجتماعية فكان رفضاً ضمنياً للنظام الإجتماعي القائم على اساس التمايز الإجتماعي ، وكان استخدام هذه التعابير هو تكريس لتصور جديد يمثل الخطوات الأولى لإقامة المجتمع المدني على انقاض المجتمع القديم ( )[٩].

لكن المشكلة تغيرت فالبورجوازية حررت السياسة فعلاً ، ولكنها اعادت بناء مفهوم السياسة الحديثة ذاته ، التي الغت المراتب الطبقية التقليدية ، وجعلت من الشعب وحدة واحدة في الوقت الذي هو فيه كثرة و افراد عديدون، والثورة الصناعية التي نقلت المجتمع من نمط العلاقات الحرفية و الاقطاعية الى نمط حياة جديدة ادى الى انخلاع الافراد عن رحم علاقاتهم القديمة . مما طرح بقوة مشكلة اعادة بناء هذه العلاقات أي بناء المجتمع المدني وفق حقيقته الجديدة ( )[١٠].

وفي النصف الأول من القرن العشرين تبلور الاستخدام الثالث على يد (غرامشي) الذي طرح المفهوم في إطار نظرية الهيمنة الطبقية . فالمجتمع المدني يمثل مجال الأحزاب، والنقابات، والجمعيات، و وسائل الاعلام، ودور العبادة، و فيه تتحقق الهيمنة الايدولوجية والثقافية على المجتمع، وهي وظيفة حيوية لبقاء أي نظام. وينطلق الاستخدام الرابع لمفهوم المجتمع المدني من التراث الذي خلفه (غرامشي)، والذي تم البحث فيه في نهايات القرن العشرين، حيث ارتبط هذا الاستخدام بفكرة المنظمات والهيئات والمؤسسات الإجتماعية، فالمجتمع المدني كما يستخدم اليوم يشير الى تلك " الشبكة الواسعة من المنظمات التي طورتها المجتمعات الحديثة في تأريخها الطويل، والتي ترفد عمل الدولة " ( )[١١].

---

(٩) في النظام القديم كانت الإمتيازات حكراً على طبقة رجال الدين و النبلاء . لذلك جاء الرفض ليمثل انقلاباً على التصور الايدولوجي السابق و قطع كل العلاقات معه. ينظر : ناصر شيخ علي ، دور منظمات المجتمع المدني في تعزيز المشاركة السياسية في فلسطين ، المركز الفلسطيني للدراسات و حوار الحضارات ، فلسطين، ٢٠١٠، ص١٩. متاح على الموقع الألكتروني : www.pcrd-pal.org

(١٠) هذه الاشكاليات النظرية هي ما سيرد عليها فلاسفة القرن التاسع عشر وفي مقدمتهم هيغل. ينظر : علي عبود المحمداوي و حيدر ناظم محمد ، مصدر سابق ، ص ٧١.

(١١) المصدر نفسه ، ص ٧٢.

المبحث الأول : التأصيل الفلسفي للمجتمع المدني عند كانط وهيغل

في هذا المبحث سوف نسلط الضوء على الأفكار السياسية لمفهوم المجتمع المدني في حقبة تأسيس الحداثة الفلسفية المبنية على العقلانية والتي جاءت بها حركة التنوير الالمانية. وكرسنا المطلب الأول لبيان الافكار الفلسفية للمجتمع المدني عند (كانط)، بينما خصصنا المطلب الثاني لتوصيح فلسفة (هيغل) عن المجتمع المدني .

المطلب الأول : التأصيل الفلسفي عند كانط

لقد أُعجب (كانط)، بحركة التنوير، وظهور التيار العقلي والتيار التجريبي والتي كانت البداية للاتجاه النقدي والمساهمة في تأسيس الحداثة الفلسفية المبنية على مبدأ الذات و مبدأ العقلانية، الأمر الذي مهد الطريق لظهور (كانط) على المسرح الفكري، وتطويره للفلسفة النقدية ( )[١]. من حيث ان معالم التنوير قد تجلت في المانيا بوضع كل مجالات النشاط العقلي والأنساني امام محكمة العقل( )[٣].

وقد نشر (كانط) عام ١٧٨٤ مقال : ماهو التنوير ؟ وتضمن: " التنوير هو خروج الانسان من قصوره في حق نفسه بسبب عجزه عن استخدام عقله إلا بتوجيه من إنسان آخر . ويرجع الذنب الى الأنسان نفسه لإفتقاره الى العزم والشجاعة لإستخدام عقله بدون توجيه من إنسان آخر". وان شعار التنوير يرتكز على مبدأ "كن شجاعاً واستخدم عقلك بنفسك"( )[٤][١].

وهكذا جاءت اهم الملامح الفكرية والاجتماعية والفلسفية التي جسدها عصر التوير في اوروبا لتؤكد على النزعة العقلانية ومفهوم التقدم ، والتفريق بين الدولة

---

(١) ابراهيم الحيدري ، النقد بين الحداثة وما بعد الحداثة ، دار الساقي ، بيروت، ٢٠١٢، ص٥٧-٥٨.

(١) فريدريك كوبلستون،تأريخ الفلسفة (المجلد السادس) من عصر التنوير في فرنسا حتى كانط، ترجمة حبيب الشاروني و محمود سيد أحمد ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ٢٠١٠، ص ١٧٩.

(١) يبين النص ان الانسان مسؤول عن قصوره بسبب نقص شجاعته و جرأته على اتخاذ القرار بمفرده . وان هناك مصلحة في ابقاء الناس على قصورهم وعجزهم .كما يوضح النص ان للانسان عقلاً يوجهه نحو المعرفة الصحيحة (حرية الإستخدام العلني للعقل). ينظر : ابراهيم الحيدري ، مصدر سابق ، ص ٦٢.

والمجتمع( ). وبذلك تطورت الفلسفة الغرْبية في اتجاهين اساسيين ، هما [١]: الاتجاه التجريبي الذي اعطى للحواس قيمتها المعرفية . والاتجاه العقلي، حيث جرى الاعتزاز بقيمة العقل والعلم ، والايمان بان التقدم الإنساني مرهون بمدى تقدم المعرفة العقلية والعلمية ( ). وهكذا اوضح (كانط) الى [٢]أي حد يستطيع العقل المحظ (الخالص) ، ان يحصل على معرفة، فصار السؤال : لماذا كانت تجربة التنوير على درجة كبيرة من الأهمية ؟ ويمكن استجلاء الإجابة من خلال ما طالب به (كانط) من حماية الحرية الفكرية ، ضد القيم المهددة لهذه الحرية ( )[٧].

في الحقيقة ان المجتمع المدني بالنسبة الى (كانط) كان وضعاً لحكم القانون ولتحقيق الحرية المتكافئة للجميع، وبالتالي من الضروري أن يتم تقييم التقاليد و تعزيزها من اجل تقدم العقل والحقيقة والحرية . انه يدعو الى شجاعة "التفكير الذاتي" الفردي–النقدي من اجل ضمان مسؤولية عامة للعقل ، هذه المسؤولية تنشأضمن منافسة عامة بين افراد يفكرون تفكيراً ذاتياً( )[٨].

إن التفكير الذاتي يقود الى نقد أشكال التنظيم الخاصة بالتطبيق بشكل عام، وبالمؤسسات (الحكومية – الكنسية) بشكل خاص . وحسب رأي (كانط)، صحيح أنه يجب الصمت داخل هذه المؤسسات، لأن دستورها يتطلب بصفته شرعياً لا سلطوياً

([١])النزعة العقلانية ترى ان (العقل هو المصدر الوحيد للمعرفة الصحيحة) .ومفهوم التقدم يعني (الايمان بقدرة العقل على التطوير والتغيير و التقدم). ومن الملامح الاخرى تفسير الظواهر الاجتماعية على ضوء القوانين الطبيعية بسبب انتشار المذهب الحسي واستخدام التجربة . ينظر : المصدر نفسه ، ص ٦٣–٦٤.

([١]) لاحظ كانط على معاصريه مغالاتهم في الاعلاء من قدرة العقل و امكانيته تجاوز العالم المحسوس ، و انهم نظروا الى العالم الطبيعي على انه عالم متغير ولا يشمل على الكلي والضروري ، وهما الصفتان اللتان تميزان المعرفة العقلية ، وقد بذل كانط جهداً كبيراً في بيان هذين الامرين . ينظر : أمل مبارك ، الفلسفة الحديثة ، التنوير للطباعة والنشر ، بيروت، ٢٠١١، ص١٧٨.

([١]) العقل المحض (الخالص) لا يعتمد في تحصيل المعرفة على التجربة أو الحواس ، انما انشأها من تلقاء نفسه بحكم الطبيعة وتركيبته. اما العقل العام ، فيقصد به جملة من العمليات التي يقوم بها الفرد في سياق اجتماعي من تشاور للتوصل الى قرارات بخصوص قضايا عامة. ينظر : ستيفن ديلو و تيموثي ديل ، مصدر سابق، ص٤٠١.

([١]) عملية التقرير العام للحقيقة ، عليها أن تضمن الحق الأساسي الطبيعي لحرية الرأي . ينظر : مجموعة مؤلفين، سؤال الحداثة و التنوير بين الفكر الغربي والفكر العربي ، منشورات الضفاف، بيروت، ٢٠١٣،ص٦٦.

فقط ، الطاعة اللامشروطة لعقد الخضوع . مع ذلك يمكن خارج هذا التنظيم أن يتم انتقاد هذه الحالة بأسم الحقيقة والحرية([١]).

كما انه يرى اننا نعيش في عالمين مختلفين : فنحن بأحساساتنا ودوافعنا وميولنا ننتمي الى العالم الحسي و نخضع لقوانين الطبيعة التي تتحكم فيه، ونحن بعقولنا وحدها اعضاء في العالم المعقول، كما يرى إن الأمر المطلق هو ، " افعل الفعل بحيث يمكن لمسلمة سلوكك أن تصبح تشريع عام" . وبصيغة اخرى : " افعل الفعل بحيث تعامل الإنسانية في شخصك وفي شخص كل إنسان سواك باعتبارها غاية في ذاتها ، ولا تعاملها ابداً كما لو كانت مجرد وسيلة "([٢]).

هنا تتضح المشكلة ، ألا وهي كيف يصبح الأمر الأخلاقي ممكناً؟ فالتجربة لا تستطيع ان تقدم لنا مثالاً يؤكد ان الأمر الأخلاقي يمكن ان يرد فيها في صورته الخالصة . وليس هناك مثال تجريبي ينهض دليلاً على صحة الأمر الأخلاقي كما تنهض التجربة السليمة دليلاً على صحة القانون الطبيعي و ضرورته . مع ذلك فنحن نستطيع ان نفسر كيف يصبح الأمر الأخلاقي ممكناً اذا تعمقنا النظر في الأزدواجية التي يتميز بها وجودنا والتي تم ذكرها سلفاً.(العالم الحسي والعالم المعقول) ، أي اذا انتقلنا خطوة من التجربة الى الميتافيزيقيا التي شيدها كانط " مذهب عقلي على اساس نقدي سليم " . ولكي نقوم بتحديد انفسنا و نشرع قوانين افعالنا ونُعد احرار بمقدار خضوعنا لهذه القوانين. فليست الحرية الا هذا الخضوع الارادي للقوانين ، او التحديد الذاتي. والانسان حر بقدر ما يخضع للقانون الذي يضعه هو نفسه لنفسه.ومن ثم تصبح فكرة الحرية التي استمدها من العقل والتي تجعلني عضواً في العالم المعقول هو الشرط الوحيد الذي يجعل الامر الأخلاقي ممكناً([٣]). ويمكن القول ، تمثلت دعوة كانط

([١]) ان فكرة الحق الطبيعي الليبرالي لكانط ، والخاصة بالتقرير العام للحقيقة ، هي فكرة التناقضات التي وجهها بشكل نقدي ضد نظام الحكم الاستبدادي ، يمكن ان تستند الى التجربة . ينظر المصدر نفسه، ص٦٦.

([٢]) ايمانويل كانط ، تأسيس ميتافيزيقيا الأخلاق ، ترجمة عبدالغفار مكاوي ، منشورات الجمل، ط٢، كولونيا– المانيا،٢٠٠٢،ص١٠–١١.

([٣])لا نبدأ من التجربة ، بل من تصور الانسان لطبيعته من حيث هو كائن عاقل ، والعالم بالنسبة لهذا الكائن وحدة تجمع في شخصه بين عالم الطبيعة وعالم العقل ، أي هناك العالم الحسي من ناحية، وهناك العالم المعقول من ناحية اخرى. ينظر : المصدر نفسه، ص ١١–١٢.

للتفكير النقدي ، هي دعوة لتعليم استخدام مهارات التفكير من اجل توسيع القاعدة المعرفية للمجتمع ، من حيث ان فلسفة الأخلاق تعتمد على النقد.

وفي مقال لـ(كانط) بعنوان "ما التوجيه في التفكير" كتبها عام ١٧٨٦، يؤكد فيها على حرية التفكير، وضرورة الاشتراك مع الآخرين والاتصال بهم لتبادل الافكار معهم ، لدفع شرور السلطة الخارجية التي تنتزع من الانسان حريته في التعبير . كما وضح في مقالته، كيفية تلقي حرية التفكير معارضة من جانب الضغط الاخلاقي على العقيدة، حين ينصب بعض المواطنين انفسهم اوصياء و رقباء على الآخرين في امور الدين ، وان حرية التفكير معناها ان لا يخضع العقل إلا للقوانين التي يعطيها لنفسه ليتحرر العقل من التقيد بأي قانون ، وبالعكس سوف ينحني تحت نير القوانين التي يفرضها عليه غيره( ). وبذلك يربط(كانط) هذه [٢]الحرية بالحق الذي عرفه على أنه " مجموعة الشروط التي بها تستطيع حرية الاختيار عند الفرد ان تتوافق مع حرية الاختيار عند الآخر ، وفقاً لقانون حرية عام"( ). وقد اقترح "لائحة واجبات[٣] تُفرض على كل فرد في المجتمع ، وليس فقط "لائحة حقوق" . ورأى ان الفرد و كعضو صالح في المجتمع يصبح اكثر حرية كلما اندمج اكثر في عالم مجتمعه ، وكلما حصر من نزواته بواسطة "ارادة حرة" و بدافع اخلاقي([٤]).

ان مفهوم الاخلاق يتعلق بالآداب الحسنة الواجب على الانسان اتباعها ، وهي موجهة لإدانة الشرور الجزئية والفردية . كما انها تراعي الآخر والانفتاح عليه ، مما سمح

([٢]) عثمان أمين، رواد المثالية في الفلسفة الغربية، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٥، ص٢٣٦-٢٣٨. على سبيل مثال انتقد كانط، اعضاء الاكليروس الذين شرعوا في اقرار قوانين دينية بغرض ممارسة "الوصاية" على عقول الآخرين. فالسلطات الدينية بذلك إنما تقيد او أو تنفي "الاستخدام العام للعقل" أو التفكير العام المستخدم في مناقشة نقدية للسياسات والقوانين التي تؤثر في المجالات الاجتماعية والسياسية. ينظر ستيفن ديلو و تموثي ديل، مصدر سابق، ص٤٠٢.

([٢])اي ان حقوق الانسان هي ، الحرية كإنسان ، والمساواة كفرد أمام قانون أخلاقي واحد ، الحق في المواطنة ، والدفاع عن هذه الحقوق هو اساس كل نظام سياسي شرعي . ينظر: جان توشار ، تأريخ الفكر السياسي ، ترجمة علي مقلد، الدار العالمية ، بيروت، ١٩٨٣، ص٣٨١.

([٢]) اذن هي حرية ضمن عمل الواجب وضمن حقوق المجتمع والدولة. ينظر : فايز صالح ابو جابر ، الفكر السياسي الحديث ، دار الجيل، ، بيروت، ١٩٨٥، ص١٢٤.

بالتفكير في حقوق الانسان . لكن هذه الدعوة كانت مرهونة بالتخلص من المنافع الشخصية ، وذلك بربط الواجب بشمولية الفعل(٥).

لكن ما الذي ينطوي عليه انخراط الناس في الانشطة المرتبطة بالاستخدام العام للعقل؟ وما هي القواعد الواجب اتباعها؟ وماهي المعايير الحاكمة للتواصل والتفكير بصورة نقدية؟ في سبيل الانخراط في التفكير العام، يجب على المرء ان يحرر نفسه من الوصايا، أي أن "يفكر لنفسه"وهذا ما اسماه كانط بالاستنارة . هذه هي القاعدة الاولى لإرساء دعائم الشرعية للإستخدام العام للعقل في المجتمع المدني . والقاعدة الثانية هي " الفكر المتسع" . وهي الاساس لإرساء وجهة نظر عامة وكلية يمكن ان يستخدمها الفرد في تقييم آرائه وأحكامه الخاصة، والبحث مع الآخرين عن مقاربات عامة للهموم المشتركة لتحقيق منظور شامل عن القضية موضع المناقشة. اما القاعدة الثالثة، فهي "التفكير المتسق" .أي على الأفراد ان يكونوا تحت حكم القاعدتين الاوليتين، وفهم وجهات نظر الآخرين لتحقيق موقف عام مشترك، لاصدار احكام حول القضايا المشتركة(٦). بعبارة اخرى، يوضح(كانط[٦]) ان الواجب انما هو الفعل الذي تحققه احتراماً للقانون الاخلاقي في قواعد اساسية ثلاث: أولاً، " اعمل دائماً بحيث يكون في استطاعتك ان تجعل قاعدة فعلك قانوناً كلياً للطبيعة". ثانياً، " اعمل دائماً بحيث تعامل الانسانية في شخصك وفي اشخاص آخرين كغاية وليس مجر وسيلة" . ثالثاً، " أعمل بحيث تكون ارادتك هي الارادة المشرعة الكلية"(٧).

([٢]) حيرش بغداد محمد، الخطاب المثالي في الفلسفة الالمانية ، دار الروافد، بيروت، ٢٠١٥، ص ٢١٩-٢٢٠.

([٢]) ان تبني هذه القواعد هو اساس التواصل بين الناس في تأمين الاستخدام العام للعقل ، مايسميه كانط بالفلسفة الاخلاقية و وجود قانون أخلاقي اساسي " الأمر المطلق" والذي يقضي بأن يعامل كل شخص في المجتمع كغاية وليس وسيلة. ينظر: ستيفن ديلو و تيموني ديل، مصدر سابق، ص٤٠٢-٤٠٣.

([٢]) القاعدة الأولى تعني ان المحك الاوحد للسلوك الخلقي هو امكان تعميمه من غير تناقض. والقاعدة الثانية ، ارادت ان تجعل الواجب مضموناً او مادة فجعلت من " الشخص الانساني" غاية في ذاته وانه الموضوع الاوحد للواجب . اما القاعدة الثالثة، هي بمثابة مركب بين القاعدتين السالفتين لأنها تنص على ضرورة خضوع الإنسان للقانون بأعتباره هو مشرعه. لزيادة في التفاصيل ينظر : زكريا ابراهيم ،كانط أو الفلسفة النقدية ، دار مصر للطباعة، ط٢، القاهرة، ١٩٧٢،ص١٤١-١٤٧.

وبغرض تحقيق هذا النوع من الاتصال الذي يتيح للناس معاملة بعضهم البعض كغايات، علينا السماح للناس " بحرية غير محدودة لاستخدام عقلهم الخاص للتحدث عن شخصهم". فالشخص الحر فعلياً يتجاوز العوائق التي تعترض تفكيره من أجل أن يحدد هو والآخرين تلك المعايير المعقولة التي يمكن احترامها من قبل الجميع ، وسينتج عن هذه الحاجة الى الحرية . إستحالة وجود الاستخدام العام للعقل إلا في مجتمع يضمن هذه الحرية ، والنوع الوحيد لمجتمع يحقق هذا هو "المجتمع المدني"، لأنه يؤمن لكل فرد الحقوق الاساسية المطلوبة للانضمام الى عالم مستنير( ).

من كل ذلك نستنتج ، ان ظهور حركة التنوير ولا سيما ظهور التيار العقلي والتيار التجريبي ، قد ساعدت (كانط) في بناء اتجاهه النقدي وظهوره على المسرح الفكري ، ورفع شعاره في التنوير " كن شجاعاً واستخدم عقلك بنفسك" من خلال تأكيده على النزعة العقلانية ، وايمانه بقدرة العقل البشري على التطور والتغيير والتقدم ، وطالب بحماية الحرية الفكرية . ودعى الى "التفكير الذاتي " الفردي–النقدي من اجل تقدم الحقيقة والحرية ولا يتم ذلك إلا في مجتمع فيه وضعاً لحكم القانون مصمماً لتحقيق الحرية المتكافئة للجميع وهو "المجتمع المدني".

المطلب الثاني / التأصيل الفلسفي عند هيغل

لقد تم تسجيل اعتراضان على فلسفة الأنوار، الأول، يوحد الأخلاق والجماعة بينما يوحد الاعتراض الثاني، الفرد والأخلاق دافعاً بالفردية الى درجة الاستقلالية لكل فرد. وقد حاول (هيغل) ان يوحد الاعتراضين عن طريق العقل . ويكون البحث عن الوحدة بين الاعتراضين بتطوير كل منهما الى مداه الاقصى : الذات والموضوع ، الانسان والطبيعة، المواطن والجماعة ، الحرية والحتمية، الى أن يلتقي القطبان في اللانهائي الذي يشمل على نهائي في ذاته ، أي الى أن يلتقيان في المطلق. وذلك من خلال محاولته في التوحيد بين الفلسفة التعبيرية التي ترفض اعتبار الطبيعة مجرد اداة للحاجة الانسانية، كما ترفض اعتبار الجماعة بشخصيتها المميزة مجرد موضوع للرغبة الفردية. وما بين الفلسفة الكانطية النقدية التي ترفض تسخير الاخلاق لأي هدف حتى لو كان

٨

(٢)ستيفن ديلو و تيموني ديل، مصدر سابق، ص٤٠٤–٤٠٥.

الاجتماع ذاته أو السعادة الإنسانية ذاتها، فالأخلاق حرة وهي اساس الحرية الفردية المترفعة عن الحاجات والرغبات. وعليه قام(هيغل) بتطوير مفهوم الأخلاق الى أخلاق ذاتية وموضوعية ومطلقة ، وان يوحد بين الفلسفتين، أي وحدة الجماعة التي تحمل معنى يتجاوز الأداتية دون التخلي عن فردية الفرد وحريته والاعتراف بفردانيته ، وهو الدافع الارقى للعمل السياسي(٢). فالبحث عن الحرية يجب انْ يتم (برأي هيغل) في الجماعة وليس ضدها ، والعام يجب ان يتطور من داخل الخاص لا أن يُفرض عليه من خارجه . ولكي يتسنى ذلك يجب ان يتدرج الانتقال السياسي–الاجتماعي من الخاص الى العام في المؤسسة الاجتماعية ذاتها. هذه الحاجة الى تطوير العموم من الخصوص او الكلي من الجزئي هي التي تضمن عدم الانتقال التعاقدي المفاجيء من الفرد الى الدولة ، بل نجعله انتقالاً متوسطاً من العائلة الى الدولة . وهذا التوسط بين العائلة و الدولة هو الذي اوجد مؤسسات "المجتمع المدني"(٥).

يعد عمل هيغل(فلسفة الحق) بياناً على درجة كبيرة من الاهمية بالنسبة للمجتمع المدني . ففي مناقشته للحياة الاخلاقية ، سعى الى توضيح المحتوى الدقيق لنماذج السلوك والالتزامات المطلوبة التي يجب على الافراد تعزيزها(١). فبالنسبة له، ان العقل هو جوهر التأريخ ، وإن التأريخ يرسم تقدم الحرية في الضمائر. والتأريخ هو تأريخ الفكر الذي يدل الفرد على معرفة ذاته بذاته. والعقل يصل الى غايته عندما يتبع الناس مصلحتهم ويحققونها ، لكنهم بذات الوقت يحققون غاية أبعد (وان كانوا لايعونها)، هذه الغاية البعيدة هي التحقيق والوعي للطبيعة الاكثر دلالة على الفكر: أي "الحرية"(٢ ٣).

---

(٢) عزمي بشارة ، المجتمع المدني دراسة نقدية ، ط٣، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٨،ص١٢٧،١٢٦.

(٣) أي لا ينشيء التعاقد دولة عند هيغل وإنما مجتمعاً مدنياً. ينظر : المصدر نفسه، ص ١٣٠.

(٣)كان همه تكريس احترام الناس لحقوق الآخرين ، وضرورة ايجاد مؤسسات تقر طبيعة السلوك الواجب تعزيزه ، من حيث ان كل الناس يمتلكون "اهلية الحقوق" وان يعيشوا وفقاً للأمر القائل " لابد ان نكون اشخاصاً وأن نحترم الآخرين كأشخاص" .ينظر: ستيفن ديلو و تيموني ديل، مصدر سابق، ص٤٣٤.

(٣)جان توشار ، مصدر سابق، ص٣٨٧.

يصور (هيغل) المستويات المختلفة للفهم الانساني، وبدءاً من مستوى الخبرة (مدركات الحس الخام) ، انتقالاً لمرحلة الحصول على معرفة كاملة للمحتوى العقلاني والأخلاقي للخبرة الانسانية . ففي المراحل الأولى من الوعي يتمثل فهم الذات في مجرد مدركات حسية (معرفة ماهو كائن) ، والمستوى التالي من الوعي الذاتي نفهم انفسنا كأشخاص مستقلين. ثم نبدأ في الانتقال الى المستوى الاعلى من الفهم الاخلاقي للوعي بالذات ( )[٣]. وفي بحثهم عن الاعتراف بالذات لدى الآخرين ، يظهر الناس راغبين في ان يمنحهم الآخرين اهمية لحياتهم . فالافراد لا يمكنهم ان يصيروا على وعي بأنفسهم كأشخاص ذوي ماهية خاصة، مالم يمنحهم الآخرين قيمة كأشخاص منفردين . في هذه المرحلة من التأريخ، المتمثلة بالانسان الأول (حالة الطبيعة) تنشأ علاقات (صراع). ففي سعي كل شخص للاعتراف به من قبل الآخرين، من الطبيعي ان يحاول الحصول على هذا الاعتراف بدون رده للآخرين . وتجسد رؤية (هيغل) لهذا الصراع الذي استشهد به بين (السيد والعبد) ، التي يسعى فيه كل شخص الى الحصول على الاعتراف من الآخر بدون رد ذلك . فمن يعترف بالسيد سوى العبد الذي لا يحترمه ؟ كما لايمكن للعبد ان يكون سعيداً في هذه العلاقة حيث إنه لم يُعترف به كإنسان بل مجرد وسيلة يستخدمها السيد لغاياته وتصبح خبرة العبد في النهاية اساساً ينطلق منه نحو الحرية ، وخلق "مجتمع مدني" يقوم على الألتزام بالحقوق الكاملة للجميع( )[٤].

في نظر (هيغل) الإرادة الحرة ، هي التحكم أو حرية الأختيار، وهي لايمكن ان تقتنع إلا اذا فهمت أنما ليست مجرد شيء سلبي ، كما انها تبحث دائماً عن الحرية في تنظيم معقول و كوني للحرية . وان السياسة هو علم تحقيق الحرية ، في تجسيداتها

---

(٣) بمفهوم الروح يجد الوعي الذاتي نقطة تحوله ، ويبدأ في الكشف عن صفته الاخلاقية الكاملة ، الذي يسميه هيغل "الإنسان الأول" وهو شبيه لما ورد في "حالة الطبيعة" فالأفراد من هذا الطراز حسب رأيه في حاجة الى الاعتراف بهم من قبل الآخرين. ينظر : ستيفن ديلو و تيموني ديل، مصدر سابق، ص٤٣٦.

(٣) في البداية يجد العبد نفسه يحقق للسيد الإشباع الذي يبغيه . ومع تقدم التأريخ يطور العبد من قدرته على أداء العمل بدوافع تضفي على العمل قيمة من قبيل الاحساس بالمسؤولية ليدرك أنه ليس مجر أداة ، بل انسان حقيقي . هذه الخبرة تمكنه من تصور مجتمع يدعو فيه الى حريته ، ويطور من فلسفته لرغبته في امكانية الاعتراف المتبادل أو الاحترام المشترك لحقوق الجميع .ينظر : المصدر نفسه ، ص٤٣٧-٤٣٨.

المتتالية والمتصاعدة خلال مؤسسات معروفة مثل العائلة ، والتكتلات المختلفة والدولة. والانسان الذي يريد العيش والتصرف ضمن واقع العالم ، يتوجب عليه الخضوع لقوانين العالم الموضوعي، القائم خارج عنه، ومن جهة ثانية ، ككائن واقعي ، انه مدعو الى تجاوز خصوصيته لكي يتوصل الى تأمل الكلي الكوني. وباختصار ان "الحرية المحددة المعينة" تمثل التوفيق بين النزعتين أو الميلين أو "الاحتياجين" عند الاشخاص: أولهما، الشخص الفردي، الغارق ، ضمن مصالحه الخاصة، يجد او يرغب في الوصول الى تطوره، ونموه الكامل في الدوائر "الخاصة" المتكونة من العائلة ومن المجتمع المدني. وثانيهما، ان هذا الشخص الفردي يعترف بفضل عقله، انه يتوجب عليه أن يتجاوز خصوصيته، وإنه لن يحققها في النهاية إلا ضمن المصلحة الكلية الكونية([٣]).

وحسب رأي (هيغل) ، يبدأ الإنتماء لكل فرد الى الجماعة بالمعرفة التي ينبغي على كل فرد ان يمتلكها عن حريته كشخص وعن حرية كل الآخرين. إلا أن الشخص الذي يعاني في ضميره كحرية مازال مجرداً (مختص في ذاتيته) . ولكي يكتسب وضعاً موضوعياً ، يجب أن يتجسد ظاهرياً. هذا التجسيد هو وسيلة التي بفضلها يبدأ الشخص في التحول ليصبح عضواً حقيقياً. إن العمل الخاص للشخص هو التملك ، و "المادة" التي تقابله هي الملكية ، وذلك لإشباع حاجاته ، وإشباع ميل طبيعي للسيطرة. وهذا المظهر لاقيمة له إلا بمقدار ما يُعرّف عمل التملك نفسه كحق: حق الشخص في تجسيد امتلاك ملكيته في وجوده الحر. إن الفرد الحر يتصرف و يمتلك ما ينتجه : وهذه هي طريقته " الطبيعية" للدخول في علاقات مجتمعية مع الأفراد الآخرين الذين يكونون ، مثله، "المجتمع". وهكذا فإن الشخص ، إنطلاقاً من الملكية، لايصبح فقط "موضوعياً" ، وإنما ينظم ايضاً وجوده تبعاً لعلاقاته مع الاعضاء الآخرين في الجماعة،

([٣]) ان الكلي (الكوني) لا يتحقق ولا تكون له قيمة بدون أن يحصل الشخص الفرد على ما يرضيه ويقنعه.كما ان الكلي لايمكن التوصل اليه بمجرد تراكم وتواجد الارادات الذاتية والمصالح الخاصة. وإن وسيلة التوافق هي "الدولة" بين الكلي والخاص وهي"واقع الحرية الملموسة المحددة". ينظر: جان توشار، مصدر سابق، ص٣٨٨-٣٩٠.

بهدف منفعي ظاهرياً، لكنه ينتج في الحقيقة ، على المستوى الإبتدائي، شبكة العقلانية الإجتماعية(٦ ٣).

ان السيرورة الجدلية لتقدم الوعي من مرحلة الوعي الفردي الى مرحلة الوعي المطلق، انما تمثل تطوراً متسقاً يتحقق في أشكال الفكر التي تمر عبر تشكيلة اجتماعية وصولاً الى العام والمطلق ، وان وحدة وثبات السلوك الأخلاقي والقانوني والقيمي، في العائلة والمجتمع ، يكونان في الأخير الوحدة بين الذاتي والموضوعي ، التي تصل الى اعلى اشكالها في الدولة( ) . ويظهر مركب الحق المطلق والاخلاق الذاتية في أخلاق[٣] موضوعية او اجتماعية . والمثلث الرئيسي داخل الأخلاق الإجتماعية هو الأسرة، والمجتمع المدني ، والدولة. ويرى (هيغل) في الأسرة المؤسسة الإجتماعية الأصلية والأساسية التي تتحقق فيها الحرية. ولكي يحافظ على تناسق الجدل ، كان عليه ان يجد نقيض لموضوع الأسرة، الذي يستطيع أن يتآلف معها في وحدة عليا هي الدولة . وهذا ما يطلق عليه اسم "المجتمع المدني". اما الموضوع داخل المجتمع المدني فهو نسق الحاجات، ذلك النسق الذي يتضمن ما نسميه بالنظام الاقتصادي ، ويضم مجموعة من الطبقات مثل ، الطبقات الزراعية، والصناعية،والتجارية، والحاكمة ، وينتمي الفرد الى الطبقة التي يطمح اليها شريطة ان يكون مناسباً لها(٨).

---

(٣) لا يكمن الطابع العقلاني للملكية في اشباع الحاجات ، وانما في ان الذاتية الخالصة للشخصية تلغي نفسها فيه، ففي الملكية فقط يوجد الشخص كعقل . وبذلك يريد هيغل التعريف بالعقلانية المستخدمة في العالم الاخلاقي بغية أن تُعرف الأشياء كما ينبغي ، وان تترتب الارادة الحرة مع العقل . ويكون المحور الأساسي للحق المجرد هي "فكرة العقد" ، لأنه تحت رعايتها تقوم علاقة اعضاء الجماعة ، وتكون للحرية وجود ملموس ، وبالتالي تنجم الملكية عن ارادة مشتركة تشكل دائرة العقد. لمزيد من الاطلاع ينظر : فرانسوا شاتلية وآخرون ، معجم المؤلفات السياسية ، ترجمة محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت، ٢٠١٤،ص١١٩٧-١١٩٨.

(٣) لقد نظر هيغل الى المجتمع على انه وسيلة لتحقيق الروح المطلق، حيث يقود تقسيم العمل الاجتماعي الى تماسك افراد المجتمع ويفسح المجال لتوظيف الافراد ضمن الطبقات . ومن اجل أن يكون المجتمع قوياً وقادراً فهو يحتاج الى بناء فوقي منسق يتضمن عدد من المؤسسات التقليدية. ينظر: ابراهيم الحيدري ، مصدر سابق، ص١٠٤-١٠٥.

(٣) اما نقيض الموضوع فهو ادارة العدالة بين الافراد والطبقات عن طريق قوانين تفسرها المحاكم بلغة مفهومة للمواطنين. واما المركب فهو يشمل رجال الشرطة الذين ينفذون اوامر المحاكم ، والنقابات التي يكون للافراد الحرية في تنظيمها لكي تدعم مصالحهم بطريقة تنسجم مع الرخاء العام. ينظر : وليم كلي رايت، تأريخ الفلسفة الحديثة ،ترجمة محمود سيد احمد،دار التنوير، بيروت، ٢٠١٠،ص٣٣٢-٣٣٣.

فالمجتمع المدني عند (هيغل) ، نتاج رؤية الأفراد احراراً، انه الحيز الذي يتصرف فيه البشر كافراد جزئيين خصوصيين لا كأعضاء مباشرين في العائلة او منعكسين في الدولة. أي نشوء حيز عام جديد هو "المجتمع المدني" وعدم اقتصار الحيز العام على الدولة ولا الحيز الخاص على العائلة. وان المجتمع المدني هو الإطار الأكثر تميزاً الذي يحصل فيه التوتر بين ما هو قائم وبين ما يجب ان يكون ، وذلك بسبب التقسيم الداخلي لهذا الحيز المؤسسي وتبقى تداخلات المجتمع المدني مع الدولة قائمة والانتقال من المجتمع المدني الى الدولة تدريجي لأن الدولة قائمة في المجتمع المدني، والمجتمع المدني قائم في الدولة "انه رابطة للأفراد كأعضاء في عمومية شكلية ، وذلك بواسطة حاجاتهم ، ثم بواسطة النظام الحقوقي كأداة للحفاظ على أمن الافراد وعلى ممتلكاتهم كنظام مفروض من خارجهم ينظم مصالحهم الخاصة والعامة"(٣ ٩).

يرى(هيغل) ان الشخص العيني هو نفسه موضوع غايته الجزئية ، وهو المبدأ الأول في المجتمع المدني (بوصفه مجموعة الحاجات ومزيجاً من الهوى والضرورة المادية)، لكن هذ الشخص يرتبط بالضرورة بغيره من الشخصيات الجزئية الاخرى حتى ان كلاً منهم يقيم ذاته ويشبعها عن طريق الآخرين، وهذا هو (عن طريق صورة الكلية) المبدأ الثاني في هذا المجتمع ، أي ان هذا المجتمع يعتمد على مبدأين اساسيين: الأول ، هو الشخص الجزئي الذي يسعى الى اشباع حاجاته. والثاني، الإرتباط الضروري بين هذه الشخصيات حيث يجد كل فرد منها أنه يعتمد على الآخرين في تحقيق غاياته، واشباع لمطالبه الجزئية الخاصة، وهكذا يكون التعارض واضحاً بين الجزئي والكلي في دائرة المجتمع المدني (٤ ٠).

---

(٣) المجتمع المدني هو نظام للحياة الأخلاقية ضائع بين قطبيه: الوجود والعدم. انه تموضع للأخلاق الاجتماعية كمظهر مجرد و خارجي ، ثم نفي له لتعود وتتحقق بشكل اكثر عينية، في كل مرة الى ا ن تصل المطلق الى ا ولة. انه يوحد بين الرابطة القائمة على الحاجة المادية والرابطة الحقوقية المفو وضة على الافراد لتنظيم تعاقداتهم. ينظر : عزمي بشارة ، مصدر سابقص ١ ٣ ٣٣ ١.

(٤) ينتقد هيغل المجتمع ا ي يقوم منطقياً على تفكيك الأسرة لأ ن ذلك يعني ا ن اعضائها اصبحوا شخصيات مستقلة ، وكل واحد منهم غاية في ذاته، ويعامل الاشخاص على انهم وسائل لتحقيق غاياته، هذا هو الاساس ا ي يرتكز عليه المجتمع المدني ا و "البورجوا ي" ،ا ي الجزئية : أنا ومصالحي الخاصة في مواجهة الكل ، لكن الافراد لاتزال ذرات اجتماعية ، يعني تعيش في مجتمع ، ومادام كل فرد يسعى لتحقيق غاياته الخاصة ، فسوف يتحول ذلك الى مبدأ كلي. وهكذا تتكشف خاصية المجتمع المدني الرئيسية وهي حالة الاعتماد المتبادل بين هذه الشخصيات المستقلة. ينظر : هيغل ، اصول فلسفة الحق، المجلدلا ول ، ترجمة إمام عبدالفتاح إمام، مكتبة مدبولي، القاهرة،٩٩٦ ط١ ٣ ٤ ٢ ٣ ٤.

المبحث الثاني: المجتمع المدني عند كانط و هيغل

في هذا المبحث سوف نتناول مفهوم المجتمع المدني عند (كانط) والذي يرى أنه (مجتمع الغايات) في المطلب الأول ، بينما في المطلب الثاني نوضح مفهوم المجتمع المدني عند (هيغل) والذي يراه انه (مجتمع الحاجات).

المطلب الأول : مجتمع الغايات

يقوم المجتمع المدني على وجود القوانين التي وضِعت و كُرست بحكم الدستور، بغية تأمين الحقوق لجميع المواطنين. وعلى الدولة في المجتمع المدني أن تعتمد على القوانين التي تحمي حقوق الناس . وقبول الأفراد سلطة الدولة عليهم هو للمحافظة على اسس تأمين حقوقهم ، ولهذا السبب من المبدئي أن يدخلوا في المجتمع المدني( ). ويعبر مشروع (كانط) لصالح حقوق الإنسان عن نفسه في[٤] نية لإرساء اساس اخلاقي غير مشروط للحرية السياسية والمساواة، عن طريق تنويرهم بحقوقهم، وبيان أن حرية التشريع هي الاساس لطاعة الرعية. وان الكرامة التي تنتمي الى الإنسان الاخلاقي، تفرض عليه واجب معاملة كل الناس باحترام ، بوصفهم متساوين. وهذا الحق لايقوم على أسبقية الاخلاق بقدر ما يقوم على مضمونها . وبذلك تنبثق القيمة الأخلاقية لفعل من الافعال من خيرية الارادة المجردة من كل غاية تجريبية ومن كل قصد مادي. وبمعنى آخر احترام القانون من حيث هو كذلك ، وان الواجب نفسه يعني ضرورة اداء فعل من احترام القانون. لذلك يقول " افعل كما لو تعامل الانسانية ، في شخصك وفي شخص كل انسان آخر، كما لو كانت دائماً غاية ، ولا تعاملها كما لو كانت مجرد وسيلة"( ). وهذا يعني في المجتمع[٢] المدني ، يتحقق مبدأ الحرية [٤]

([٤]) إن منح الحقوق الأساسية للناس يتفق والمبدأ الكانطي القائل بأن على الأفراد أن يعاملوا بعضهم كغايات.وإن الأفراد في المجتمع المدني لا يعاملون كغايات إلا عندما يتمتعون بحرية متساوية، لكن هذه الحرية ليست ممكنة مادام الافراد لايملكون حقوقاً اساسية متساوية. لذلك اراد كانط ان يجعل من حرية كل فرد ملازمة لحرية كل شخص آخر ، بما يتفق مع قانون عام صحيح (المبدأ الكلي للحق) . ينظر: ستيفن ديلو و تيموني ديل، مصدر سابق، ص٤٠٩.

([٤]) معاملة الناس بوصفهم غايات، تقدم الأساس الأخلاقي للنظرية السياسية، وتفضي الى فكرة الاستقلال الذاتي، أي الارادة التي تشرع لنفسها والتي تضع قانونها الخاص، وتصور إرادة كل موجود عاقل بأنها تؤلف تشريعاً كلياً " تصور مثمر لمملكة الغايات" والتي هي ارتباط الموجودات من حيث انهم غايات. ينظر: ليو شتراوس و جوزيف كروسبي، تأريخ الفلسفة السياسية،ج٢ ،ترجمة محمود سيد أحمد،المجلس الاعلى للثقافة، القاهرة،٢٠٠٥،ص١٧٢-١٨٠.

المتساوية بالاستخدام السليم للإجبار ، أي أن الأفراد لايمتلكون حرية مساوية لحرية الآخرين ، إلا عندما تكون هناك قيود شرعية تستخدم الإرغام لكي تضمن انتهاء الناس عن اتيان اية افعال "تعوق الحرية" او تعترض سبيل الآخرين في حصولهم على مايستخدمونه من حقوق. لكن لماذا الاجبار؟ لماذا لا يتقبل العقلاء الالتزام بواجبات أخلاقية ، ويكيفون أنفسهم إرادياً وفق معايير من شأنها تدعيم حقوق الآخرين؟ هنا يرى (كانط) انه بالرغم من قيام المجتمع المدني على فكرة رئيسة لحماية حرية كل شخص بصورة متساوية إلا أنه من المحتمل أن يكون الأفراد مدفوعين في أنشطتهم اليومية بعوامل غير أخلاقية ، مثل دوافع المصلحة والرغبة . لذلك فالدافع وراء تصرف المرء كما ينبغي ، يتمثل في خوفه من العقاب . ومن ثم فإن الناس تتصرف وفق ما تتطلبه الإخلاق، لتعزيز اغراض العقل العملي أو الأخلاقيات العملية حتى وسط الاشخاص الذين قد لا يكونون مدفوعين في أغلب الأحيان للتصرف وفق احكام العقل( ).

في عصر التنوير توجد تأكيدات على ان العقل والمبدأ الأخلاقي يشغلان ميداين مختلفين و يؤديان الى نوعين مختلفين من الفهم يجدان تعبيرهما في التمييز المشهور الذي اقامه بين "ماهو كائن" و " وما يجب ان يكون" ، اذ ثمة حد يفصل المفاهيم الخلقية المتجذرة في " مشاعر النوع الإنساني وعواطفه" عن الحقائق التي يكشفها العقل. فكيف يمكن صياغة مفهوم عن الصالح العام تصورياً في بيئة كهذه؟ هل يمكن الكشف عن الصالح العام من خلال التفكير الأخلاقي بمعزل عن مجموع المصالح الفردية ؟ هل ان القواعد التي يسير وفقها المجتع المدني مستمدة من القانون الأخلاقي الطبيعي أم مصطنعة؟ كان رد (كانط) على هذا التسؤلات هو : أن يؤسس المجتمع المدني على احساس باطني بالواجب الأخلاقي يوحد البشر معاً ، ولكنه اراد

([٤]) يريد (كانط) ان تسن قوانين على شكل من الإجبار غرضها الوحيد حماية حرية المجتمع بصورة متساوية. فضلاً عن ذلك يرى بأن الإجبار ليس بالطريقة الوحيدة للإنصياع لمعايير القانون الاخلاقي . فقد افاد بأنه في " المجتمع المدني " يتم تنظيم المصالح المختلفة بحيث تكون مصلحة كل فرد قادرة على مراقبة نفوذ المصالح الاخرى، والحد منها. وبالتالي يمكن درء تهديد حقوق الآخرين . هذا الوضع الذي توجد فيه المعارضة المتبادلة بين اعضاء المجتمع جنباً الى جنب مع ادق تعريف للحرية ، ومع ارساء حدودها بما يتسق مع حرية الآخرين. ينظر : ستيفن ديلو و تيموثي ديل، مصدر سابق، ص٤١٠-٤١١.

ايضاً المضي ابعد ، من خلال استخلاص أخلاق كلية تناسب الناس الذين يحكمون انفسهم بأنفسهم حكماً تاماً في المسائل الأخلاقية ، و أعلن أن البشر احراراً خلقياً لأنهم يستطيعون أن يستخلصوا القواعد الاخلاقية الصحيحة باعتبارها متطلبات يفرضونها على انفسهم (٤ ٤).

لكن كيف يتسنى للناس المدفوعين بالمصالح الجزئية الإلتزام بقانون أخلاقي؟ وإذا كان المبدأ الاخلاقي يُملي على المرء أفعالاً أخلاقية مستقلة عما يريده ، فما الذي يحول دون أن يستثني هذا الفرد المحدد نفسه من قاعدة أخلاقية غير ملائمة؟ وصل (كانط) الى قناعة تفيد أنه يمكن استنتاج "ميتافيزيقيا أخلاقية" من العقل واستخدامها لتوليد مجموعة المباديء القائمة بذاتها لأنها مستقلة عن تقلبات الخبرة. اراد استنتاج نظرية سياسية وذرائعية خالصة عن المجتمع المدني بشيء يمكن الدفاع عنه بحجة اكثر أخلاقية(٤ ٥).

لقد جادلت "الفلسفة النقدية الكانطية" بأن هناك اختلافاً جذرياً بين العالم الطبيعي "ماهو كائن" و العالم الأخلاقي " مايجب ان يكون" . وفي هذه النقطة يرى (كانط) أن المبدأ الأخلاقي لايمكن أن يُستمد من فوضى الخبرة وتقلبها . ولكن الناس قادرون مع ذلك على تعقل منهجي للعالم ، لأن بوسعهم فهم أفكار غير مستمدة من الخبرة ، وليست ذات واقع تجريبي (امبريقي). و وقد فهم المساواة على انها قدرة كلية على المشاركة في الخاصية المتعالية للشرعية القانونية . كما أنه ادرك بأن لنا رغباتنا واهدافنا التي تفرض علينا مراعاتها، اذ لايمكن تجاهل المصلحة الخاصة ولا محوها ، فشرطنا الانساني موسوم بتوتر دائم بين ما نريد فعله وما يجب فعله، ولكن لنا في العقل نصيراً قوياً ، فالعقل يوفر للفرد العقلاني البصيرة لتقرير مايجب فعله ، وهذا يؤلف "الواجب" الذي يجب ان يحكم تفكيرنا الاخلاقي. وان الحرية الأخلاقية هي الخضوع للقوانين

---

(٤) لقد تمثل الهجوم الكلي للأخلاق الكانطية في استنتاج اساس أخلاقي راسخ للمجتمع المدني بإرسائه على اشياء نعرف اننا نفعلها لمجر كونها حقاً. ينظر : جون اهرنبرغ ، المجتمع المدني –التأريخ النقدي للفكرة، ترجمة على حاكم صالح و حسن ناظم ، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت ٢٠٠٨، ص ٢١٦–٢١٨.

(٤) لمزيد من التفاصيل ينظر: ايمانويل كانط ، اسس ميتافيزيقيا الاخلاق، ترجمة محمد فتحي الشيطي، دار النهضة ، بيروت، ٢٠٠٩، ص ١٥٩ ومابعدها.

الأخلاقية للعقل العملي التي تقدمها الارادة نفسها "الفريضة المنطقية" . أن ادراكنا اننا نعيش في "مجتمع مدني"، مكتظ ببشر لهم "غاياتهم" المشروعة الجديرة بالاحترام بما هي حقوق ، إن هذا الادراك يجعل المرء "عضواً مشرعاً في عالم ممكن من الغايات"(٦ ٤).

كان المجتمع المدني، من وجهة نظر (كانط)، يمثل مجموعة من الممكنات الملائمة لأُناس متحضرين، وان فكرة "الفريضة المنطقية" هي في الواقع مجموعة من الإجراءات. فاذا كان (كانط) قد رفض استخلاص الأخلاق من السياسة، فانه بالتأكيد أقام السياسة على الأخلاق، وتفضي أخلاق الواجب عنده الى سياسة الحقوق. وإن الاستقلال الذاتي الأخلاقي ومتطلبات"الفريضة المنطقية" تتطلب ميداناً محمياً يمكن للناس ان يقرروا افعالهم بحرية. وإن المجتمع المدني المحمي بحكم القانون، والحقوق،والحريات المدنية،انما يعبر عن قدرة أعضائه الأخلاقية العامة والمتساوية(٧ ٤).

ان الإستخدام الحر للعقل النقدي يوفر مجموعة من قواعد السجال. والميدان العام المحمي بالقوانين والمؤسسات يمكن أن يضع الاختلاف في خدمة التنوير. وإن مشكلة الانسانية تتمثل في كيفية بناء ميدان عام يمكن الدفاع عنه أخلاقياً، ويستطيع ان يقدم العون للحرية ويحترم الإستقلال الذاتي . وإن دولة القانون هي وحدها تستطيع أن توفق بين استقلالية الفرد الأخلاقية و متطلبات النظام العام. وعندما تطبق "الفرضية المنطقية" بشكل واسع النطاق على حياة الناس الأخلاقية في "المجتمع المدني" ، فإنها تحتاج حينئذ الى الدولة . ويتشكل المجتمع المدني من خلال "علاقة تقوم بين

---

(٤) جاء المنجز الذي حققه كانط من بحثه في كيفية تنظيم الذهن للإدراكات الحسية التي تقدمها الحواس ، والتي لاتفرض من الخارج ، انها جزء من الذهن الانساني بحد ذاته، وهي قابلية نتمتع بها لبناء تجربتنا عقلانياً . ونحن نستطيع اكتشاف المباديء الأولى ، والتوصل الى القوانين ، لان النماذج التي تحكم "عقلنا العملي" هي نفسها التي تتيح الى "عقلنا المجرد "القدرة على تشريع القانون الاخلاقي هي قدرة جوهرية في الذهن البشري. لمزيد من التفاصيل ينظر:جون إهرنبرغ، مصدر سابق، ص٢١٩-٢٢١.

(٤) ان اهتمامات كانط تنصب على مبادئ الشرعية وتطوير القواعد التي يختارها الناس للعيش وفقها. ولا يمكن جعل القواعد اخلاقية سارية ومشروعة،إلا بقدر تام من المساهمة العامة في التشاور والمناقشة والقرار. ينظر : المصدر نفسه،ص ٢٢٢-٢٢٣.

اناس احرار يخضعون للقانون القسري، بينما يحتفظون بحريتهم ضمن وحدة عامة مع اقرانهم"(٨ ٤).

ويعرف (كانط) الحالة المدنية القانونية بأنها " علاقة البشر فيما بينهم، تحت أحكام قانونية عمومية وهي أحكام قسرية"، والحالة المدنية الأخلاقية هي " تلك التي يكون فيها البشر متحدين تحت قوانين خالية من الإكراه، بمعنى تحت قوانين الفضيلة بمجردها".وحينما يشير للدولة وكيفية انعقاد وضعها بعد الحال المدني ، يوضح المكتسب الأشمل هو المواطنة، وإن اعضاء المجتمع المدني يتمتعون بصفات قانونية (الحرية القانونية، المساواة المدنية، والاستقلال المدني، والشخصية المدنية)( ). وتستوعب الحكومة المدنية الرعايا ، الذين يتمتع كل فرد منهم بالحرية في اطار القانون كإنسان، والمساواة امام القانون كرعية، والتقنين كمواطن . وان الحكومة المدنية منفذة للقانون ، وحافظة للتوازن والانسجام في المجتمع لتأمين حريات الافراد( ).

وينطلق (كانط) في فهمه مسألة الحرية من تحليله للنشاط السياسي بوصفه نشاطاً حقيقياً(حرية الفعل القانوني). وتعد مسألة الحرية المدخل الرئيسي بالنسبة لتصوره عن المجتمع المدني والحياة المدنية . ويمكن النظر الى مفهومه للمجتمع المدني من مستويين : الأول ، أخلاقي تأسيسي ، يتصل بالحرية الداخلية للكائن الإنساني . والثاني ، قانوني حقوقي، يتصل بالحرية الخارجية للفرد بوصفه عضواً في المجتمع المدني يتصرف على نحو يتصل بحرية الذوات الأخرى ، ويسعى الى تأسيس المجتمع المدني على شعور جوهري ومشترك بالواجب الأخلاقي بين البشر جميعاً، وهو مجتمع متمدن مؤسس على مفهوم الحق(٥ ١).

---

(٤) سوف تتخذ الدولة ذات الشرعية الأخلاقية شكل جمهورية مؤسسة على الحريات المدنية وحكم القانون، وهي الشكل الأفضل الذي يستطيع فيه كل فرد البحث عن سعادته. كما ان أي قاعدة للسلوك تتيح للفرد ان يعيش بحرية و يحترم الآخرين والتي هي في منزلة "الحق" . وان الحق هو تقييد حرية كل فرد بحيث تتناغم مع حرية كل شخص آخر ضمن حدود قانون عام. ينظر : المصدر نفسه، ص٢٢٦-٢٢٧.

(٤) على عبود المحمداوي، الفلسفة السياسية، دار الروافد، بيروت، ٢٠١٥، ص١٤٢-١٤٤.

(٥) عزمي بشارة ، مصدر سابق، ص١٢٦.

(٥)سربست نبي، المجتمع المدني(السيرة الفلسفية للمفهوم) ، السليمانية، مؤسسة حمدي،٢٠٠٦، ص١٦٤-١٦٦.

ومن كل ما سبق يمكن القول ، أن(كانط) كان على يقين من أن تنظيم المجتمع المدني حول مجموعة مشتركة من الغايات وهو افضل أخلاقياً من تكوينه طبقاً لمتطلبات السوق، وإن معاملة الناس كغايات في ذاتها هي الطريقة التي نوفق فيها بين اهدافنا الجزئية والمتطلبات الأخلاقية الكلية . وذلك أن الناس تعبر عن مشاغلها الأخلاقية ، بوصفها مجموعة من الواجبات المفروضة تجاه الآخرين لأنها حق. فكان المجتمع المدني لديه مجتمعاً اخلاقياً يقتضي من الناس المستقلين ذاتياً اخضاع افعالهم للمعايير الأخلاقية الكلية "الفريضة المنطقية". ويمثل المجتمع المدني عنده تنظيماً للإنسانية في عالم من الغايات الأخلاقية، ويوفر للناس تحقيقها من خلال الواجبات التي يفرضونها على انفسهم.

المطلب الثاني : مجتمع الحاجات

تنتج فكر المجتمع المدني منطقياً من تفكك الأسرة، وهنا ينشأ تعدد الشخصيات المستقلة التي ترتبط بعضها ببعض ارتباطا خارجياً بوصفهم ذوات اجتماعية متعددة ومستقلة، وكل منهم يميل الى أن يعامل ذاته وحدها على انها غاية بينما يعامل كل الاشخاص الآخرين على انهم وسائل لتحقيق غاياته. وبذلك فكل واحد يصبح معتمداً اعتماداً كلياً على الآخرين جميعاً (بوصفهم وسائل لتحقيق غاياته) ، وهكذا ينشأ اعتماد متبادل مغلق بين الكل على الكل(٢ ٥).

ويتضمن المجتمع المدني عند (هيغل) ثلاث مراحل او لحظات :

١. توسط الحاجة واشباع الفرد لها من خلال عمله. واشباع حاجات الآخرين (نظام الحاجات).
٢. التحقق الفعلي للمبدأ الكلي للحرية وهو حماية الملكية(ممارسة العدالة والهيئة القضائية).

---

(٥) كل واحد يستخدم الآخرين على انهم وسائل لإشباع مطالبه، وحالة الاعتماد المتبادل هذه هو ما يسميه هيغل بالمجتمع المدني. ينظر: ولتر ستيس، فلسفة هيغل، ترجمة إمام عبدالفتاحإمام، مكتبة مدبولي، القاهرة،٩٩٦ ص ٥٩ ٥.

٣. الاحتياط ضد الجوانب العرضية الكامنة في نظام الحاجات، وممارسة العدالة، ورعاية المصالح الجزئية وكأنها مصلحة مشتركة عن طريق الشرطة والنقابة( ).

وحسب رأيه، ان المجتمع المدني يقوم على (السعي الذكي) ، وان العنصر الكلي موجود بداخله بطريقة مستترة كامنة تبدأ بالظهور التدريجي المتزايد، وتظهر معه العناصر الأخلاقية التي تبلغ ذروتها في الدولة. ويقصد في الفرق بين المجتمع المدني وبين الدولة من حيث أن المجتمع المدني ليس إلا عاملاً مجرداً في الدولة، وهذا المجتمع لم يظهر ، ولا يمكن له ان يوجد بدون الدولة . ومن ثم فان المجتمع المدني يمكن ان يتميز منطقياً عن الدولة حين يكتمل نموها، فهو ذلك الجانب المجرد من الدولة الذي يُنظر الى المجتمع فيه على انه تجمع لأشخاص مستقلين يبحثون عن غاياتهم ويبلغون هذه الغايات عن طريق بعضهم البعض من خلال عمل الجهاز الإجتماعي كله( ) .

اذاً المجتمع المدني يتمثل في ذلك المجال المنفصل او الحيز المستقل الذي يستوعب المصالح الموجودة بعيداً عن الدولة. أي ساحة لتلاقي المصالح الفردية بدون اعتبارت للإلتزامات والواجبات التي تشكل اهمية أساسية في حماية الحقوق الواجب منحها للجميع .لكن كيف يتجاوز المجتمع المدني هذا الوضع لخلق مجتمع يتحقق فيه الاحترام المتبادل للحقوق؟ باديء ذي البدء، يتألف الناس من العاملين والمستهلكين الذين يستهلكون المنتجات الناتجة عن عمل العمال، كما ان الأفراد مدفوعين لخلق تنوع من الحاجات الجديدة يسعون لإشباعها الواحدة تلو الأخرى . وبسبب تمسك الناس بمطلب المساواة في إشباع الحاجات، يؤدي ذلك الى تكاثر الحاجات، إذ تأخذ الحاجات في اتساع متواصل مصاحب لتطور الشهوات التي يجب إشباعها بخلق وتطوير منتجات جديدة. وتلبية الحاجات تأتي من خلال العمل الذي

---

(٥) غاية الحاجة هي إشباع الجزئية الذاتية، لكن الكلي يؤكد نفسه من خلال العلاقة بحاجات الآخرين و ارادتهم الحرة . ﴿ن طريقة الحصول على الوسيلة الجزئية المناسبة لحاجاتنا المماثلة هي العمل، وبالتالي يعتمد الناس على بعضهم البعض، ويرتبط الواحد منهم بالآخرين في العمل وفي اشباع حاجاته. ينظر : هيغل ، اصول فلسفة الحق، مصدر سابق، ص ٤ ٣ ٤ ٩ ٤ ٤.

(٥) إن دائرة المجتمع المدني تشمل مؤسسات مثل : المحاكم (القضاء) والشرطة والنقابات ، وهذه لا يمكن أن توجد بدون وجود دولة. وان الفارق الأساسي بين المجتمع المدني والدولة ، هو أن الفرد في المجتمع المدني ينظر الى نفسه على انه غاية وحيدة لدرجة تصبح غايته جزئية ، في حين ان الدولة تعد غاية اعلى يوجد الفرد من اجلها لدرجة غايته تصبح كلية. ينظر: ولتر ستيس، فلسفة الروح، ترجمة إمام عبدالفتاح إمام،دار التنوير،ط٣،بيروت،١٩٨٣، ص٩٨-٩٩.

ينتج السلع ويشبع الحاجات الاساسية . وهذا يؤدي الى تقسيم العمل لخلق نظام يتيح لوظيفة كل عامل أن تكون أقل تعقيداً، وبذلك تتزايد مهارة كل شخص. وهنا يجد الأفراد أنفسهم في علاقات تتصف بالاعتماد المتبادل على بعضهم البعض، كل يساهم في مهمة اكبر لإنتاج ما يكفي من سلع لإشباع الحاجات المختلفة لدى اعضاء المجتمع. وسنجد أن ما يدعم البنية الكاملة للسوق من استهلاك وعمل هو المجتمع المدني الذي يقوم على تقسيمات طبقية (الفلاحين، والمزاعين، والتجار، والموظفين)( ).

إن لحظة الجزئية هو لحظة ضرورية للمجتمع المدني لكن لحظة الكلية تظهر وجودها منذ البداية ايضاً. لأن الفرد في بحثه عن غاياته تجعله يعتمد على الآخرين جميعاً. ومن ثم فكل فرد في بحثه عن مصالحه إنما يحقق مصلحة المجموع الكلي( ). وبذلك يمر المجتمع المدنّي بثلاث مراحل أو لحظات كما°اسلفنا، ففي المرحلة الأولى نجد أن نظام الحاجات يتكون من عوامل ثلاثة هي : الاعتماد المتبادل، العمل كأداة لإشباع الحاجات، والثروة (من خلالها تظهر ملكية المجتمع). وبذلك ينشأ تقسيم المجتمع الى طبقات او فئات (الزراع، والفلاحين)وهي تقابل الفكرة ، و (طبقة التجار والصناع) وهي الطبقة التي تظهر فيها مبدأ الفهم ومبدأ الفكرة (تمثل لحظة الجزئية). ثم (الطبقة الكلية) التي تحقق المصالح الكلية للمجتمع والدولة ، وهي الطبقة الحاكمة التي تعتمد على مبدأ العقل( ).

وفي المرحلة الثانية (الهيئة القضائية) ، فيتألف المجتمع المدني من اشخاص لهم حقوق التي تتحول الى قوانين . وبذلك يظهر نسيج موضوعي لمجتمع قائم أو مؤسس في العالم الخارجي، وتكون العلاقات بين افراد هذا النسيج الإجتماعي هي بدورها موضوعية ايضاً . ومن هنا ، فما كان موجوداً على انه حقوق عادية (ذاتية)، اصبح

(°) ستيفن ديلو و تيموني ديل، مصدر سابق، ص٤٣٩-٤٤٠.

(°) لذلك في المجتمع المدني نجد أن كل من المبدأين (الجزئية والكلية) ، فعال ومؤثر. لكن اتحادهما ليس عضوياً حقيقياً ، ولن توجد وحدتهما الحقة إلا حين نصل الى الدولة. ينظر: ولتي ستيس، فلسفة الروح، مصدر سابق، ص١٠١.

(°) إريك وايل ، هيغل والدولة ، ترجمة نخلة فريفر، دار التنوير، بيروت، ٢٠٠٧، ص١٠٢-١٠٤. ولمزيد من التفاصيل ينظر : هيغل ، اصول فلسفة الحق، مصدر سابق، ص ٤٣٩-٤٥٠.

موضوعياً(وجود مؤسس)، وبذلك يصبح الحق المجرد حقاً إيجابياً (قانوناً) . وهكذا ينشأ نظام الدولة( ). وفي المرحلة الثالثة (الشرطة والنقابات) ، يقوم المجتمع المدني لإشباع غاياته والتي مجموعها تشكل رفاهية الفرد. وإن ضمان هذه الرفاهية وملكيته الشخصية في مواجهة عوامل الصدفة والاتفاق هو مهمة الشرطة، من أجل الإشراف والرقابة لتنظيم رفاهية الفرد. ومن خلال معالجة هذه الرفاهية وسعادته الجزئية لكي تتحول الى شيء موضوعي في مؤسسة، فإن جماعات الأفراد التي تقوم رفاهيتهم على مصالح متشابهة يؤلفون رابطة تعرف بأسم النقابة، حيث ان نشاطها يحقق الغايات الكلية للمجتمع، وترفع الفرد من مستوى نشاطه الذاتي الى مستوى النشاط الكلي( ).

وبذلك يدرك (هيغل)، ان المجتمع المدني هو نطاق متميز من"الحياة الأخلاقية" في مقابل "الأسرة والدولة" وهو يتوسط بينهما، ويشمل الحياة الاقتصادية للجماعة جنباً الى جنب مع التنظيمات القانونية والسياسية والاجتماعية التي تتضمن قيامه بعمله بسهولة( ). فالمجتمع المدني تحول الى "ارضية توسط" بين الفرد والدولة. وهذه هي موضع الانفصال بين الجزئي والكلي، وبذلك هي موضع تفكك معين للحياة الاخلاقية، لكنها في الوقت نفسه هي شرط مصالحتها (السياسية) الحقيقية. اما ضمن منظومة الحاجات نفسها ، تبقى هذه المصالحة موضوعية بحتة. وتحدث بواسطة عملية تعديل الأفعال الفردية من خلال "يد خفية"، ولهذا السبب هي لا تعاش من قبل فاعلين بوصفها مفعولاً وأثراً لحريتهم، بل بوصفها اذعاناً للضرورة . وعلى ذلك فان أية مصالحة أخلاقية تفترض توسطاً موضوعياً وذاتياً: هذا التوسط هو منجز من قبل الدولة وحدها بإعتبارها دولة التجسيد المؤسساتي للحرية . وهكذا يظهر ادخال مفهوم المجتمع المدني، إنما يهدف الى تجسيد التوسطات عبر مؤسسات من قبيل العدالة وفئات

---

(٥) جان بيار لوفيفر و بيار ماشيري، هيغل والمجتمع، ترجمة منصور القاضي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٣، ص٣٤-٣٥. وينظر كذلك : والتر ستيس، فلسفة هيغل ، مصدر سابق،ص٥٦٧.

(٥) للمزيد من التفاصيل ينظر : هيغل ، اصول فلسفة الحق ، مصدر سابق، ص٤٧٦-٤٩٤.

(٦) ميخائيل إنوود ، معجم مصطلحات هيغل ، ترجمة إمام عبدالفتاح إمام ، دار التنوير، بيروت، ٢٠١١، ص١١١.

المجتمع الحديث. وهكذا يتعلق الأمر في نظرية المجتمع المدني بالنجاح في جعل أفق المصالحة الذي في موضوعة "الحياة الأخلاقية" ضمن دولة العقل أمراً مقبولاً(٦ ٢).

إن نظرية (هيغل) عن السيد والعبد تظهر تصوره المادي لتلك العملية الخاصة بتطور الذات، أي عندما ينشأ التوتر بين شخصين بخصوص الإعتراف بأن احداهما هو سيد الوضع(التعريف بالآخر). وهكذا تنتهي النظرية بعملية ديناميكية خاصة بالتبادل التشكيلي بين الإنسان(الذات) والطبيعة (الموضوع)، ويكون العبد هو الاقرب الى الواقع، والذي يتعلم اكثر من سواه، بينما كان عمل السيد هو عمل المحفز الضروري(٦ ٣).

ويرى (هيغل) إن الارادة لايمكنها أن تكون حرة مالم تكن فاعلة تبحث عن حريتها في تنظيم عقلي شامل للحرية، ولا تستطيع ان تحقق ذاتها إلا إجتماعياً وسياسياً و تتموضع في سياق موضوعي في العالم الخارجي، وبذلك فإن الفرد لايمكن ان يكون حراً إلا بوصفه كائناً سياسياً، ان تحقيق الحرية والبحث عنها يجب ان يتم في الجماعة وليس خارجها، وأن الحرية النهائية للفرد تتجسد داخل الكل ومن خلاله. وهذا يعني أن الإجتماعي والسياسي هما التحققان التأريخيان للحرية في تعيناتهما المتعاقبة، من خلال الأسرة والمجتمع المدني وأخير الدولة. وإن المجتمع المدني يمثل نطاقاً للمنافسة والخصوصية، لكنه في الوقت ذاته يؤسس لإتحاد أخلاقي أرقى تمثل الدولة فيه ذروة الحرية والمعقولية(٦ ٤).

---

(٦) مجموعة باحثين ، المثالية الالمانية، المجلد الثاني، تحرير هنس زندكولر، ترجمة أبويعرب المرزوقي وآخرون، الشبكة العربية للابحاث والنشر، بيروت، ٢٠١٢،ص٥٧٦-٥٧٧.

(٦) اعتبر هيغل الثورة الفرنسية حدثاً مهماً ، فقبل الثورة كان الأسياد يؤلفون "طبقة ملاكي الارض" المنغمسين في اهوائهم ، بينما كان العبيد هم المواطنون العاملون والعاجزون سياسياً. وخلال الثورة أعاد العبيد تحديد اللعبة ، وأمكن التغلب على الأعتراف المشترك غير المتساوي لصالح اعتراف مشترك قائم على المساواة " مجتمع مؤلف من احرار متساوين وعقلانيين"، والمساواة في المجتمع المدني حققت الأستقلالية. لمزيد من التفاصيل ينظر: غنار سكير بك و تلز غيلجي، تأريخ الفكر الغربي من اليونان القديمة الى القرن العشرين، ترجمة حيدر حاج اسماعيل، المنظمة العربية للترجمة، بيروت ، ٢٠١٢، ص ٦٥٠-٦٥٣.

(٦) لمزيد من الاطلاع ينظر:هربرت ماركيوز، العقل والثورة، ترجمة فؤاد زكريا، الهيئة المصرية للنشر، القاهرة، ١٩٧٠، ص٢٩-٥٩.

فالمجتمع المدني عند (هيغل) ، هو ميدان أسمى للحياة الأخلاقية لأنه يكييف الأختلافات التي كانت موجودة في الحياة العائلية ، ولأنه ابداع فريد للحداثة تشكله الفردانية والتنافس. إن المجتمع المدني هو لحظة من لحظات الحرية (مرحلة من مراحلها) ، لكنها محدودة. وانه قوة هائلة تجذب الناس اليها، وتطالبهم بالعمل من أجلها، وأن يدينوا لها بكل شيء، وأن يفعلوا بواسطتها كل شيء، فالمجتمع المدني هو "نظام الحاجات"(٤ ٦).

فقد اكتشف (هيغل) عملية تموضع الذات الإنسانية في العمل أو في نتاج العمل . والعمل إجتماعي وليس منعزلاً، وبالتالي ، فان عملية كفاية الحاجات (العمل) هي عملية من الاعتماد المتبادل ، وهي الاساس لوجود المجتمع المدني . حيث ينطلق (هيغل) في خطوته الأولى لتأسيس المجتمع المدني من (العمل) من أجل سد حاجات البشرية ضمن نظام الملكية الخاصة أو تبادل بين اصحاب الملكية الخاصة الذي يسميه "نظام الحاجات" (٥ ٦).

ومن كل ذلك نستنتج ، إن المجتمع المدني عند (هيغل) هو شكل متناقض بين مبدأين (الجزئية والكلية) ، فمن جهة يتكون من مبدأ خاصية الأفراد أي الشخص يعتبر نفسه غاية وحيدة لنشاطه ، ويتحدد وجوده بمجموع حاجات. على أن مبدأ الخاصية ، يجتمع بمبدأ آخر يفرض شكلاً شمولياً "علاقات عمل و تبادل وكل واحد يجعل نفسه معترفاً به ويرضى ذاته بفضل الآخر" . فتحول الخاص والجزئي بواسطة نظام الحاجات، يحقق ذاته بالتحول الى عموم ، والعموم يظهر كأنه المبدأ الآخر المختلف بالنسبة للخصوص. هذه المرحلة من تطور مفهوم المجتمع المدني ، تمثل الفرق او الاختلاف الذي يدخل بين العائلة والدولة.

---

(٦) جون إهرنبرغ، مصدر سابق، ص٢٤٢-٢٤٥.

(٦) عزمي بشارة، مصدر سابق، ص١٣٥.

الخاتمـة (الإستنتاجات)

١- هناك عدة إستخدامات لمفهوم المجتمع المدني، من بينها أنه يشير الى نظام ملتزم بتأمين حكم القانون في صالح الخير العام والحقوق الأساسية. كما أنه يشير في نفس الوقت الى مجال منفصل بين الحكومة والفرد، يعمل على ايجاد مناخ يتيح للجماعات المختلفة الإستمرار في مساراتها الخاصة دون الخوف من تدخلات الحكومة، ويشجع الناس على تأييد معايير عامة تعد ضرورية للحفاظ على حياة مدنية لائقة.

٢- لقد طالب كانط حماية الحرية الفكرية من القيم المهددة لها، وكان يؤمن بالحقيقة التي مصدرها العقل، والحاجة الى تأمين الحرية للجميع. وبذلك كان المجتمع المدني بالنسبة له وضعاً لحكم القانون مصمماً لتحقيق الحرية المتكافئة للجميع من خلال التفكير الذاتي (الفردي – النقدي) من أجل ضمان مسؤولية عامة للعقل. اما بالنسبة الى هيغل فقد سعى الى توضيح المحتوى الدقيق لنماذج السلوك والإلتزامات المطلوبة التي يجب على الأفراد تعزيزها وتكريس احترام الناس لحقوق الآخرين، وضرورة ايجاد مؤسسات تقر طبيعة السلوك الواجب تعزيزه. والمجتمع المدني عنده، هو وضع يتجسد البحث عن الحرية فيه في امكانية الإعتراف المتبادل او الإحترام المشترك لحقوق الآخرين.

٣- يرى كانط ان الأمر الأخلاقي يتحقق من خلال معاملة الإنسانية بإعتبارها غاية في ذاتها وليست وسيلة، وأن يكون ذلك مبدأ تشريع عام او قانون عام. والمجتمع المدني الذي يقوم على وجود القوانين ومنح الحقوق الأساسية يتفق ومبدئه الرئيسي بأنه على الأفراد ان يعاملوا بعضهم البعض كغايات حين يتمتعون بحرية متساوية. اما المجتمع المدني عند هيغل هو نطاق متميز من ((الحياة الأخلاقية)) في مقابل ((الأسرة والدولة)) وهو يتوسط بينهما، ويشمل الحياة الإقتصادية للجماعة جنبا الى جنب التنظيمات القانونية والسياسية والاجتماعية التي تتضمن قيامه بعمله بسهولة.

٤- لقد فصل كانط بين الشروط الذاتية والشروط الموضوعية للحرية، ونظر الى الإرادة الحرة للذات بصفتها تجريداً للوعي، الذي هو مجرد تعبير عن استقلال الفاعل الأخلاقي استقلالاً ذاتياً . بينما يرى هيغل ان الإرادة لايمكنها أن تكون حرة مالم تكن فاعلة تبحث عن حريتها في تنظيم كلي شامل للحرية، ولاتستطيع أن تحقق ذاتها إلا إجتماعياً وسياسياً وتتموضع في سياق موضوعي في العالم الخارجي، وبذلك فإن الفرد لايمكن أن يكون حراً إلا بوصفه كائناً سياسياً .

٥- ترفض الفلسفة الكانطية تسخير الأخلاق لأي هدف . فالأخلاق عند كانط حرة، بل هي أساس الحرية الفردية المترفعة عن الحاجات والرغبات . أما هيغل في محاولته للتوحيد بين الفلسفة التعبيرية التي ترفض إعتبار الطبيعة مجرد أداة للحاجة الإنسانية، كما ترفض إعتبار الجماعة مجرد موضوع للرغبة الفردية، وبين الفلسفة النقدية، قدم خطته لتطوير مفهوم الأخلاق، وحاول تقسيمها الى أخلاق ذاتية وموضوعية ومطلقة . أي وحدة الجماعة التي تحمل معنى يتجاوز الأداتية دون التخلي عن فردانية الفرد وحريته والأعتراف بفردانيته، هو الدافع الأرقى للعمل السياسي .

٦- لقد اراد كانط تأسيس المجتمع المدني على احساس باطني بالواجب الأخلاقي يوحد البشر معا. ولقد كان على يقين من أن تنظيم المجتمع المدني حول مجموعة مشتركة من الغايات هي الطريقة التي نوفق فيها بين اهدافنا الجزئية والمتطلبات الأخلاقية الكلية. في حين تنتج فكرة المجتمع المدني منطقيا عند هيغل من تفكك الأسرة، حيث ينشأ تعدد الشخصيات المستقلة التي ترتبط بعضها ببعض ارتباطا خارجيا بوصفهم ذوات اجتماعية متعددة ومستقلة، وكل شخص مستقل غايته في ذاته يعامل الآخرين على انهم وسائل لتحقيق غاياته، وبذلك ينشأ اعتمادا متبادلا والكل يريد اشباع مطالبه، وحالة الإعتماد المتبادل هذه يسميها هيغل بالمجتمع المدني. وان الفرد في

المجتمع المدني ينظر الى نفسه على أنه غاية وحيدة (غاية جزئية) في حين أن الدولة تعد غاية اعلى يوجد الفرد من أجلها لدرجة غايته تصبح كلية.

٧- المجتمع المدني عند هيغل هو عاملا مجرداً في الدولة، من حيث أنه لايمكن أن يوجد بدون الدولة، كما أنه يتميز عنها، فهو ذلك الجانب الذي نرى المجتمع فيه بأنه تجمع لأشخاص مستقلين يبحثون عن غاياتهم .

Abstract

The biggest motivation for the German philosophers to write their political philosophy of the civil society is to reorganize the state and society on the basis of the mind, so that they can reconcile the social and political systems and the freedom of the individual and his interests, and build a more equal and just society. Kant wanted to establish a civil society on a system of moral goals and the moral sense of duty unites human beings together, so that we can reconcile our partial objectives and moral requirements to form a filed in civilian life. And he believes that civil society intetferes with political community, and that it is only another name for the state. While Hegel looked at the civil society that it is distinct from the state, where the civil society created when the division of social work, which leads to cohesion of the community and lends to recruit individuals within the classes, and the main theme, is the format needs.